

المُراث الزراعي عند العرب

الدكتور يوسف عز الدين

(عضو المجمع)

كان العالم كله يعتمد اعتماداً كلياً على المنتجات الزراعية وكانت حضارة الانسانية الأولى قائمة على الزراعة التي تعتمد على المياه والأرض الخصبة وقد حبانا الله تعالى في وطننا العربي بكل ما يتمناه الانسان من وفرة في المياه وخصب في الأرض وقد نشأت الحضارة القديمة في العراق ومصر واليمن والشام ومنها انتشرت الى العالم بفضل الزراعة .

ولأهمية الزراعة في التاريخ القديم عزا الفلاح في العراق ومصر تعلمها واجادتها الى الآلهة التي علمتهم أساليبها وصناعة أدواتها وأسلوب الحراثة والفلاحة والحصاد وقد خصصت شريعة حمورابي جانباً منها للزراعة والري . والطريف أنها وضعت عقاباً لمن يعذب الحيوانات والماشية . ومن هذين القطرين تعلم اليوناني الزراعة وقد تحدث عنها هيرودتس واسترابون ووصفا أساليبها ومقدار نجاح الزراعة وتقديمها في العراق ومصر .

وقد برع العرب بالزراعة والصناعات التي تحتاجها كأدوات الحراثة والدراسة والتذرية والارواء . وقد بقي الشرق رائداً من رواد الصناعة الزراعية ففيه ازدهرت جنائن بابل وجبال اليمن وغوطة دمشق ووادي النيل . ولما دخل

* محاضرة القيت في كلية الزراعة ، جامعة الملك سعود ، الرياض في ٢٤/٥/١٩٨٢
المصادف ١١ رجب الاصح ١٤٠٣ هـ .

العرب الأندلس نقلوا معهم فنون الزراعة التي طورت حياة الأندلس وأثرت أهله بالخير والحضارة ومن الطريف أن يحدثنا ابن الفقيه الهمداني عن تطور الزراعة وتقدمها واختلاف الاثمار في الانتاج الزراعي فيقول في (صفة جزيرة العرب) إن أنواع العنب كانت أكثر من عشرين صنفاً وقال الفقيه الهمداني راوياً عن محدث (انه يعرف بمدينة السلام نيفا وسبعين نوعاً من التفاح هم عندها وتبسم أخو المتحدث ثم قال كذا وكذا زيادة على ما قال أخوه بنحو اربعمئة نوع وتسعة أنواع ...) وهو دليل على اهتمام الزارع والفلاح بالأرض والاشجار واستنبات أنواع جديدة . وقد أنعم الله على الانسانية كلها بأنواع كثيرة من النباتات والاشجار فقال في محكم كتابه (وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء . فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان (١) دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشابها وغير مشابه ، انظروا الى ثمره اذا اثمر وينعه ان في ذلكم لآيات لقوم يرمنون) (٢)

وقال تعالى :

(وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون ، وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ، ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون) (٣) .

وقد شجع النبي صلى الله عليه وسلم على الزراعة وحث على ممارستها فقد قال : (ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو انسان الا كان له به صدقة) ومن يدرس الصحاح والمساند يجد الأحاديث النبوية الشريفة كثيرة في هذا الصدد .

(١) القنوان قال ابن عباس هي المراجين - الخضر الطري الغض المتراكب كالسنابل في الحنطة والشعير .

(٢) الانعام : ٩٨ .

(٣) يس : ٣٣ ، ٣٥ .

كما حرص الرسول الكريم على إحياء الارض الموات وجعلها لمن احيائها .
وقد سارت الدول الاسلامية في ضوء هذا طوال حياتها فجعل عمر بن الخطاب
الارض لاصحابها وحرمها على الفاتحين ليستمر اصحابها في زراعتها ، وقد
كانت الدولة تساعد الزارع وتوفر له المتطلبات الضرورية للارض .

فلو قرأنا كتاب الحراج لأبي يوسف والأحكام السلطانية للماوردي وغيرها
من كتب التراث الإسلامي التي تتحدث عن الزراعة لوجدنا أنظمة الزراعة
في الإسلام تحث على تشجيع الفلاح فهي لا تأخذ الحراج من الأرض إلا
مرة واحدة وإن زرعت مرات عديدة وتعينه متى أصابه الضرر أو أصيبت
زراعته بالتلف أو قضت عليها الآفات والحشرات وما كانت تطالبه بضرائب
عن العلف والبقل والخضروات والقطن والكتان .

لذلك ازدهرت الزراعة وتنعم الناس بالخيرات بعد أن أخذت الدولة
الاسلامية على عاتقها حفر الانهار والترع وبناء الجسور والقناطر وبلغ نظام
الري في الدولة الاسلامية الذي ساد الشرق والغرب مرحلة من دقة الهندسة
وإحكام الصناعة مازال مضرب المثل فكانت بعض الانهار تعبر نهر دجلة إلى
الضفة الاخرى بعبّارات محكمة الهندسة واتخذت بعض هذه الانهار أداة
لنقل البضائع والمواد الأولية والزراعية الى المدن المختلفة .

ثم ان الدولة كانت مسؤولة عن تنظيف الانهار وكريها وتخليصها من
الاشواب والايوساخ والاعشاب وصيانتها لتكون المياه سريعة الجريان ولتسهيل
مهمة الزراعة والفلاح .

وكان الناظر إلى اراضي العراق من بعيد يراها سوداء من كثافة الخضرة
حتى سميت بأرض السواد فما تخلو الارض من شجرة أو حقل أو بستان أو
حديقة . لأن وسائل الري كانت متقنة ووصول المياه كان سهلاً .

وهل ينسى التاريخ الزراعة القديمة وأسلوب ري الجنائن المعلقة .

التأليف والمؤلفون :

وقد ألف العرب عدة كتب في الزراعة والفلاحة دلت على الاسلوب العلمي والعملية الذي صاحب هذه المؤلفات وقد طبع بعضها ومازال بعضها مخطوطاً وقد تحدثت عن النباتات بأنواعها وزراعتها وغرسها وفسائلها وبذورها وأساليب التقليم والتلقيح والتشذيب وخصصت أجزاء للزهار والرياحين دلت على مقدار رهافة الذوق وحسن الاختيار . وبحث هذه الكتب في الارض وانواعها وأشكالها وألوانها وخصائص هذه الالوان والانواع وتحدثت عن السماد وأنواعه الحيواني والنباتي وفوائد الاسمدة ومقاديرها لكل شجرة أو نبتة أو زهرة كما وجدنا الزراع يفرقون بين أنواع المياه وأثرها في سقاية النباتات مثل مياه الامطار والآبار والعيون والأنهار دون أن يملكوا الوسائل التقنية أو المختبرات التي وجدت في هذه القرن .

وفي الأندلس وصل علم الزراعة مرحلة متطورة جراء التجارب العملية التي كان يجريها الفلاح المسلم على أنواع الاشجار والازهار ولم يكتف بما كان لديه من أشجار وبذور وإنما استورد بذوراً لنباتات لم تكن تزرع في الأندلس جلبها من الشرق الأدنى وأخذ يقارن بين اصنافها المختلفة وخصائصها المتباينة واهتم بالنباتات الطبية اهتماماً واضحاً .

وقد خصص عبدالرحمن الناصر حديقة خاصة بزراعة النباتات الطبية وأرسل في طلب بذورها من كل مكان في العالم وزرعها في هذه المزرعة وتتبع نموها وراقب فوائدها وأجرى عليها الاموال للعناية بها وتطويرها .

وقد كان العلماء يرحلون من مكان إلى آخر للاستفادة من الخبرات فقد ذهب ابن البيطار من الأندلس إلى المشرق وكان يناقش العشابين والزراع والصيدالة في زراعة النباتات الطبية حتى عُيِّنَ رئيساً للعشابين والصيدالة في مصر واستقر مع تلميذه ابن أبي أصيبعة وعرف كتاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية .

ومن الكتب التي ألفت في الزراعة والفلاحة والحيوان مالا يمكن أن أحصره فهي ماتزال مخطوطة في أكثرها ولكن يمكن أن أذكر نماذج منها ومنها يستدل على مقدار العناية بالفلاحة واهتمام الزراع المسلم بها وبالحيوانات المختلفة التي كانت تخدم حياته .

١- الفلاحة لابن البصال (محمد بن ابراهيم) سمي البصال نسبة الى زراعة البصل وطبع كتابه محققاً في تطوان سنة ١٩٥٥ وهو رائد من رواد فن الزراعة التطبيقية .

٢- كتاب الفلاحة لابن الاشبيلي

٣- الفلاحة الاندلسية لابن العوام (علي بن محمد) وقد قام بنفسه بتجريب زراعية وابحاث فردية سجلها في كتابه .

٤- الفلاحة لابن الحجاج (احمد بن محمد) (٤) .

٥- الفلاحة النبطية لابن وحشية وهو معلمة زراعية في المياه والزراعة وأوقاتها وهندستها ولا يهمننا نسبة الكتاب بقدر ما فيه من علم .

٦- كتاب النباتات أبو حنيفة الدينوري طبع في لايدن ١٩٥٣ .

٧- عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات .

للقزويني

٨- زهرة البستان ونزهة الاذهان

لأبي عبدالله محمد الغرناطي (ابن حمدون الاشبيلي)

(٤) حقق (المقنع في الفلاحة) لابن حجاج الاشبيلي صلاح جرار وجاسم ابو صفية باشراف الدكتور الدوري ونشره مجمع اللغة العربية الاردني .

وامتاز الكتاب بالتجربة والتطبيق وشدة الملاحظة فقد كان المؤلف يذكر تجاربه الخاصة ولم يكتف بذلك انما أراد الاستزادة من معارفه فذهب الى المشرق . كما نذهب نحن الى أمريكا والغرب - واحتك بالزراع بل وصل الى بحر الخزر وعاد الى الاندلس مطبقاً جميع ما شاهده واستفاد كثيراً من سفراته وللأسف لم يجد الباحثون نسخة كاملة منه فما زال الكتاب كثير المعلومات يستفيد منه الزارع المعاصر وبخاصة دراسته للأرض والماء والبذور والفسائل والسماذ بأنواعه الحيواني والنباتي وزراعة البقول والخضر والأزهار والرياحين .

ولم يقف التأليف عند فترة من الزمن أو عهد من عهود الاسلام انما وجدنا من ألف متأخراً مثل عبدالغني النابلسي الذي توفي سنة ١١٤٣هـ وطبع هذا الكتاب في دمشق سنة ١٩٧٧ وقد سماه (كتاب علم الملاحة في علم الفلاحة) والكتاب تجربة حقلية بأسلوب علمي اتخذ فيه وسيلة للمس والشم والذوق والنظر اذ هي أدوات المختبر العلمي للفلاح وبها يختبر الوسائل والأدوات معرفة الأرض وغرس الشجر والزهر والتقليم والتطعيم ويفحص الاختلافات بين البذور والبقول .

وقد وجدت بعض حكام اليمن يؤلفون في الزراعة والبيطرة مساهمة في نشر الوعي الزراعي وتثقيف الزراع فقد ألف معهد الدين عمر بن يوسف الرسولي المتوفى سنة ٦٩٦هـ (١٢٩٦م) عدة كتب في الزراعة والطب والفلاحة فقد ورد في ترجمته أسماء الكتب التالية :

- ١- الثقافة في علم الفلاحة .
- ٢- الجامع في الطب .
- ٣- ملح الملاحة في معرفة الفلاحة .
- ٤- المعتمد في الادوية المفردة .

٥- المغني في البيطرة (٥) .

وقد ألف عباس بن علي بن داود (الملك الأفضل) المتوفى (٧٧٨ هـ - ١٣٧٦ م) . (بغية الفلاحين في الاشجار المثمرة والرياحين) ذكر فيه أنواع الأراضي والمياه والزراعة وأوقاتها والاشجار وغرسها وآفاتهما وخزن الحبوب ولا يمكن أن أقف على جميع ما كتب عن الزراعة والبيطرة وتربية الحيوانات ولكنني أريد أن ألفت النظر الى ان العرب في مختلف بلادهم وعلى مستوى الطبقات قد اهتموا بالزراعة وأولوها العناية الكافية ويمكن أن نذهب الى أية مكتبة ونفحص المخطوطات والمطبوعات فسنجد صدق ما قلت .

الغرب و الزراعة :

وكل ما اتمناه ، وأنا في حرم كلية الزراعة موئل هذا الفن الاصيل ، ان تقوم بجمع هذه المخطوطات والمطبوعات التي تحدثت عن الزراعة الاسلامية وتخصص لها مكانا في مكتبتها ان لم تكن قد قامت بالعمل وأطمع في تخصيص بعض المحاضرات المقارنة بين ما وصل اليه العرب والمسلمون وبين ما وصلت اليه العلوم الزراعية المعاصرة فليعرف الطلاب بأن تراثهم الاصيل لم يترك شيئا علميا لم يدرسه ولتعود الثقة بقدرات الاجداد ثم الانتفاع بالخبرات الزراعية والعلمية القديمة في بناء زراعي نابع من تربتنا وبيئتنا والاستفادة من الغرب ومعداته وآلاته المتطورة في تطوير حياتنا الزراعية .

ولرب قائل يقول لماذا لا نأخذ الفكر الزراعي الغربي المتطور ونطبقه على الارض العربية ونترك كل ما جاء به العرب وجوابي واضح وصريح أن الفلاح العربي المسلم طبق على بيئته ومحيطه خبرته وعرف تربته واستفاد من تجربته من الهواء والماء والشمس والرطوبة كما استفاد الغربي من محيطه فيجب أن نستفيد من التجارب العربية والغربية في آن واحد لان الاختلاف واضح بين الغرب والشرق في تنوع المحصول وجودته باختلاف المحيط والتربة والمياه .

(٥) حكام اليمن المؤلفون المجتهدون ، تأليف عبدالله الحبشي ١٩٧٩ بيروت ص ١١٥ .

ولا ننسى أن الغرب مدين لنا بكل حضارته وفكره وتطوره العلمي ويكفي أن ندرس علم الزراعة في الاندلس فسنجدها ما تزال تستعمل الاسماء العربية بفضل زراعة المسلمين وتطور هذا العلم في بلادهم .

وكان من فضل العرب والمسلمين على الغرب ادخال الأدوية الطبية الزراعية التي تطورت فيما بعد الى التحضيرات الكيماوية لأن العرب لم يتركوا شيئاً الا ذكروه بل رسمت النباتات الطبية بدقة وثبتت ألوانها المختلفة في مؤلف (رشيد الدين الصوري) .

العناية بالحيوان :

ولم تكن الزراعة وحدها مجال عناية العرب والمسلمين فقد كان للحيوان عناية خاصة حتى عند الأدباء والكتاب حسب مصطلح اليوم لأن العالم كان واسع الاطلاع على معارف علمه موسوعياً في ثقافته فلا نعجب إن وجدنا العالم الطيب خبيراً بالزراعة والزراع خبيراً بالموسيقى واللغة والأدب اذ لم يكن عصر الاختصاص قد بدأ فني الحيوان نجد حياة الحيوان الكبرى للدميري والحيوان للجاحظ وعجائب المخلوقات للقزويني وسنجد العالم العربي يعنى بالأدب والزراعة والصناعة والحيوان فهو يصف الكائنات الحية في مختلف رتبها وأصنافها وأشكالها والبيئات التي تعيش فيها سواء أكانت تعيش في البر أم في الماء أو كانت برمائية وبالطبع لم تقسم حسب المفهوم العلمي الحديث فهم يرون كما ما يطير من الفراشة والبراعة والطير والخفاش وترتب حسب الحروف الابدجية ولكنهم لم يتركوا من الحيوانات والحشرات والنباتات شيئاً كالنمل والنحل والعقرب والزنبور والحلزونات والأسماك وجميع أنواع الزواحف واللبائن الا أحصوها ووصفوها وذكروا فوائدها ومضارها . وبلغوا مرحلة في الدقة العلمية والوصف الباهر ما أثار الإعجاب .

وليس غريباً على الباحث المسلم أن يهتم الحيوان لانه جزء من حياته فقد ألف الجاحظ (الحيوان) وألف الدميري (حياة الحيوان الكبرى) وهذان الكتابان مطبوعان ينهل منهما كل باحث في الأدب واللغة وعلم الحيوان واكن لا بد من أن أذكر (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للقزويني) والمؤلف من سلالة أنس بن مالك وولد في قزوين وغلبت عليه شهرة البلدة وقد سافر الرجل الى الشام والعراق واصبح قاضيا في العراق زمن المستعصم وبذلك نجد في بحثه صدق القاضي وامانة المؤمن في تأليفه .

فقد درس حياة النبات والحيوان ورتب مؤلفه حسب البيئة التي يعيش فيها الحيوان فحيوانات الماء تختلف عن حيوانات البر وبالطبع لم يأخذ بنظرة العلم اليوم ولفت نظره حجم الحيوان وحركته وطيرانه لذلك عد الخفاش واليراعة من الطيور وحسب الحوت والاسماك من نسق واحد لانه رتب حسب المعرفة القديمة .

ولكن الدقة العلمية في إبعاد الاساطير والخرافة القديمة خير شفيح لسه في البحث فهو لم يترك حيوانا من الحيوانات أو حشرة من الحشرات سواء أكانت من الزواحف أو اللبائن الا ذكرها .

وسارت هذه الدقة في كتابه لما تحدث عن الاشجار والنباتات والأزهار .
في أوروبا :

وعندما درست في أوروبا وجدتها تتسع بخيرات كثيرة من الاطعمة والمزروعات النادرة وتلتد بمختلف الفاكهة والخضروات مع أنها لم تكن تعرف شيئاً عنها قبل الاحتكاك بالشرق العربي والتراث الزراعي الاسلامي فالرز والسكر والقطن والزعفران والنخيل والاعناب والخيار والقرع والرقى (البطيخ الأحمر) والبطيخ والليمون والبرتقال والخوخ والمشمش الى آخر القائمة الكبيرة من مفاخر هذه الفاكهة والنباتات لم يكن يعرفها الأوربي البدائي ولم يكن

يسمع بها لانها أنواع لم يرها ولم تقدر مخيلته على تصورها وقد بقيت بعض هذه الأسماء كما جاءت من اللغة العربية أو بعض الامالات والتحريف الذي يناسب اللغة التي نقل اليها .

وقد كان للحروب الصليبية فضل على الغرب فقد حملت روح الحضارة الاسلامية الى أوروبا وكان للأندلس أثر كبير في نشر الثقافة الاسلامية الى جانب الفن الزراعي . ومكتبة الاسكوريال خير شاهد على ما وصل اليه فن الزراعة ففيها كثير من كتب الزراعة منها كتاب ابي زكريا الاشبيلي الذي يقف أمام دقة علمه وسعة اطلاعه وتجاربه العلمية الزراع المعاصر مدهوشا لما فيه من نظرة عميقة وتجارب زراعية ناجحة ومعرفة واسعة بأساليب الزراعة وطرق الري وبناء القنوات وحفر الجداول وتصريف المياه الزائدة وهي أهم خطر يهدد الاراضي الزراعية في الوطن العربي هذه الأيام .

جمال الاندلس في الشعر :

وقد سعدت بزيارة معالم الاندلس وهالني منظر تلك الحدائق الناضرة والزهور البانعة بألوانها الرائعة وجمال التنظيم وحسن التنسيق الذي يدهش السائح والزائر والمقيم من فتنة هذا الجمال النشوان ودقة بناء المهندس واحكام البناء وتناسق التصميم وبراعة السطرة على مجاري المياه للارواء أو للزينة في في النوافير والسقي .

ورغم كمر السنين واختلاف العصور فقد بقيت هذه الحدائق والبساتين شاهدا خالدا على براعة المهندس المسلم ودقة الفلاح واصالته في عمله وبعد نظر في الزراعة .

وايت شعري كم أوحى هذا الجمال من قصائد خالدة جميلة الالحن رقيقة الاسلوب ساحرة العبارة حلوة اللفظ وخلدت مشاعر جدنا الفلاح وأحاسيسه وسجلت عواطفه الصادقة حتى خصص لها الأدب العربي فرعاً من فروع

سماه شعر الطبيعة وجدنا فيه شعر ابن زيدون وابن هاني وابن عبد ربه وغيرهم من شعراء المشرق والمغرب الذين أوحى لهم ازهار الرياض وخرير الجداول وهبوب النسيمات العذبة جميل الشعر وعذب القصيد .

فمن زار تلك الديار واه حس شاعر لا بد أن ينظم فيها أحاسيسه وكتب أجمل أدبه متأثراً بما حباه الله من فتنة وسحر ولتقف عند بعض هذا الشعر الجميل لنترحم على أجدادنا الفلاحين في الاندلس الذين زرعوها واحسنوا زراعتها فقد قال ابن زيدون :

اني ذكرتك بالزهراء مشتاقاً	والافق طلق ومرأى الارض قد راقا
وللنسيم اعتلال في اصائله	كأنه رق لي فاعتل اشفاقا
والروض عن مائه الفضي مبتسم	كنا شققت عن اللبات أطواقا
يوم كأيام لذات لنا انصرمت	بتنا لها - حين نام الدهر - سراقا
نلهو بما يستميل العين من زهر	جال الندى فيه حتى مال أعناقا
كأن أعينه اذ عاينت أرقبي	بكت لما بي فجال الدمع رقراقا
ورد تألق في ضاحي منابته	فازداد منه الضحى في العين اشراقا
سرى بنافحه نيلوفر عبق	وسنان نبته منه الصبح أحداقا
وقال ابن حمد يس :	

في حديق غرس الغيث به	عبق الارواح موشى البطاح
تعقل الطرف ازاهير به	ثم تعطيه ازاهير صراح
وقال ابن خفاجة يصور الطبيعة	بجمالها النشوان وزهو البهاء الريان
والفتنة الساحرة :	

وكمامة صدر الصباح قناعها	عن صفحة تندى من الأزهار
في أبطح رضعت ثغور اقاحه	اخلاف كل غمامة مدرار

نشرت بحجر الارض فيه يد الصبا دار الندى ودراهم النوار
وقد ارتدى غصن النقا وتقلدت حلي الحجاب سواف الانهار
وكان الشاعر يتحدث مع هذا الجمال الزاهي الذي زين بالأزهار والفتنة وبهره
سحر المنظر ، وكيف لا ينبهر أصحاب الذوق الرفيع والاحساس العميق .
وقال في حديقة :

وصقيلة الانوار تلوي عطفها ريح تلف فروعها معطار
والنور عقد والغصون سواف والجزع زند والخليج سوار
رقص القضيبي بها وقد شرب الثرى وشدا الحمام وصفق التيار
انها فتنة الطبيعة في زهو الازهار واختيال الاشجار وفضل الفلاح العربي الذي
خلدها للانسانية متعة وسحراً .

ترى الحديقة ترقص طرباً وتلوي عطفها لداعبة الرياح لها فتلف أغصانها
بالرائحة العبقة . فغنى الحمام وصفق التيار ورقص الفنن ، انها نعمة الله وفضله
على عباده بقيت تذكر فضل الفلاح العربي على كل سائح زائرها وتمتع بجمالها .
وقد ألهمت الطبيعة الزاهرة الساحرة في الأندلس احمد شوقي أجمل شعره
وأرقه في قصيدتين مشهورتين فهو يخاطب (نائح الطلح)

لم تأل ماءك تحنانا ولا ظمأ ولا أدكارا ولا شجوا افانينا
تجر من فنن ساقا الى فنن وتسحب الذيل ترتاد المواسينا
آه لنا نازحي ايك باندلس وان حللنا ريفاً من رواينا
وقد مررت بالاندلس فجعلت مني شاعرا نظمت فيها أبيات ترجمت الى
اللغة الاسبانية والانكليزية فكانت سبباً في أن تكون احدى هذه القصائد مقدمة
لترجمة كبيرة عن شاعر الاندلس الكبير (لوركا) (٦) قلت :

هذي مروج بلادتي الخضراء
والماء عذب في تدفقه
غنت به حمدونة سلفا
أين ابن زيدون ومجلسه
وأخي يسير الى سنابله
وارنب هذي بمشييتها
عين الجآذر في محاجرها
غرناطة التاريخ ذا شجن
ولآلى* الاحباب ان نشرت
وصحائف التاريخ قد خجلت

وفي القصيدة التالية سجلت الوفاء العربي الاصيل عند الرجل المسلم العربي
نحو زوجته ومقدار حبه له فقد بنيت الزهراء على اسم الزوجة وكانت من
بلاد يكثر فيها الثلج فأراد زوجها أن يكرمها فغرس لها أشجار اللوز لانها عندما
تزهو تبدو وكأنها الثلوج (٧) على سطح الارض ولما وصلتها تذكرت الحكاية فقلت:

من خطاة مجفلات جاءني يسعى غريبا

بدد الصمت الرهيبا .

لم يدُر دهري حبيبا .

من أتاني بعد أن صرت ركاما وحجارة

عبثت أيدي زماني غارة تتبع غارة

حاقد يبغض رمزا كان في الحب منارة

كنت رمز الأمل العذب وهمسات الأمان



(٧) بناها عبدالرحمن الناصر وحشد لها آلاف العمال يعملون فيها حوالي عشرين سنة فكانت من
روائع الفن المعماري ذكرها المقرئ ج ٢ .

جبل القدس شموخاً ملأ الدنيا حناني
قد غرسنا لهم الحب بأنغام حوانسي
فسقونا غصص البغض بتدمير الحياة .
من أتانني زائراً بدد صمت الحشرات ؟ ..



ليته جاء بكورا ومع الفجر الحبيب
وأنا فوق سرير الفل في نسج حبيبي
مخلمي الدف ما أجمله دف القلوب
ونوافيري جذلي بين كأس وحب
كنت قارورة أشواق والهيام وطيب
كنت للحب مروجاً عطرات كل الدروب
أين ظلي ومياهي
وأغاريد الطيور ؟ ..

يرغم الوحي بأرض فغدا العيي خطيبا
ألهم العازف حبي فيغنيه ضروبا



أنا يا زهراء قد جئت من الشرق القصي
عربيّ جاء يحدو بغناء عربيّ
ساقه الشوق لكي يستاف في هذا الندي
ويروي ظمأ النفس فصلى وتبتّل
فجثا فوق اريج وعلى التراب تمهل



أنا لو استطيع قد سرت على الاجفان في شوقي العميق
وزرعت السحب ازهارا على طول الطريق

أبيض السحر كنور اللوز كالشبح الحقيقي
خالدا مثل خلودك
ساحرا سحر نشيدك



لولا جمال الاندلس وذكريات المجد العربي التليد وتألق الطبيعة يجهد الفلاح العربي الذي زرع أشجارها ونسق حدائقها لما وجدنا مثل هذه القصائد الرائعة التي سجلت نبضات الشعر والشعراء ولولا عناية الزارع العربي المسلم لما خلدت تلك الحدائق مثل جنة العريف والحمراء والزهراء انه ثمرة الفن الزراعي الأصيل . الذي حرص عليه الفلاح العربي المسلم في تلك الديار .

المكتبة الزراعية :

اهتم العرب بالعلوم في مختلف أنواعها وقد كان الكاتب المسلم دقيق الملاحظة عملي النظرة واقعيًا في تسجيل ما يراه وقد سجل لنا كتباً كثيرة عن النخل والعشب والكأ والأشجار والكروم بأنواعها وأشكالها المتنوعة ومحل غرسها وأماكن تكاثرها وما تحتاجه من عناية ورعاية .

وقد اهتم بالنخلة اهتماماً واضحاً لأنها كانت تعطيه الشيء الكثير حتى سماها سيدة الشجر وقد حققت بعض هذه الكتب ونشرت من المستشرقين ومن العرب وتحتاج الى وقت طويل لدراستها ومن الذين اهتموا بالتأليف النضر بن شميل وأبو عمرو الشيباني والاصمعي والزبير بن بكار وابن سيده وان جاءت اكثر هذه الكتب مهتمة بالجانب اللغوي الا أنها أعطتنا مدى الاهتمام الواضح بالزراعة والزرع . وقد حصر الزميل الدكتور حسين نصار في دراسة شاملة كتب النبات في بحث نشر في مجلة مجمع اللغة العربية في دمشق .

وللأسف ان المكتبة الزراعية ضاع الكثير منها في غزو المغول للعراق وفي المصائب التي صبت عليها الصليبية على المسلمين في الاندلس فقد حرق الكثير منها

وكانت تقضي على كل كتاب مكتوب باللغة العربية وينال صاحبه من العذاب ألوانا وما بقي منها قد ذكرنا جزءا منه ما زال زائلا بغيره ما يفيد الزارع والفلاح ومهندس الري ففيها تحديد لأوقات الزراعة وغرس الفسائل وشتلها وريها وسماها ونظام هذا الري كما ذكرنا .

وأشكال الاغراس حتى دخلت الاسماء العربية في تاريخ الاندلس الزراعي وحملت المتوجات الزراعية الاسماء العربية وبخاصة المزروعات التي لها علاقة بالطب ومالها علاقة في علاج الامراض كما اسلفنا فقد عرف الحنظل والحناء والبان والكافور والكر كم والكمون والذرة والقطن والسكر والحلفاء والحرمل والياسمين والجث (البرسيم) والليف والنانج والزعفران والسماق والسنبل والتمر والتمر هندي والقائمة طويلة جداً يمكن لمن يريد أن يتتبع هذه الاسماء العربية في اللغة الاسبانية يجدها في سهولة ويسر .

وقد بقي الفلاح المسلم رائداً من رواد الزراعة واكثر النباتات واستخراج العقاقير سواء أكان في المشرق أم في المغرب وكان له فضل كبير في استعمال كثير من هذه النباتات في الادوية الطبية . ويحاول الطب المعاصر اليوم دراسة أثر هذه النباتات التي جاء ذكرها عند ابن زهر وابن البيطار وبالفعل استعمل الطب الحديث جزءاً منها في العلاج الطبي ووجدنا ناجعة ناجحة .

والطريف أنني لما سافرت إلى الصين ذهبت إلى الصيدلية فوجدت الصيدلاني يخير المريض بين الاعشاب التي وضعها في أدراج مرتبة منسقة وبين الادوية الحديثة وبالفعل احتجت إلى بعضها فاعتمدت على طب الاعشاب فكان أسرع أثراً وأكثر أمناً فلماذا لا يقوم الصيدلاني العربي بمثل مايقوم به الصيني في وطنه وفي نباتاته ؟

إن علم الزراعة الذي يذهب لدراسته أبناءنا إلى امريكا وأوروبا ليعودوا بعدها فخورين بشهادتها ودرجاتها العلمية له أصل اسلامي عربي طورته أوروبا

وزادت فيه حسب حاجتها ومحيطها وليس في الدراسة في أوروبا من ضير ومن الضروري الاستفادة من النظريات الجديدة والتجارب التي أجراها العلماء ولكن المهم أن يستفيد طلابنا وأساتذتنا من العلوم الزراعية والقيام بالتجارب في أرضنا ومحيطنا والأسمدة الموجودة لدينا ونظام الري القديم في الوطن العربي لأنها تلائم هذه الأرض وكانت نتائج تجربة عملية طويلة .

وحبذا لو قام فريق من هؤلاء المختصين بنشر وتحقيق هذه الكتب ومقارنة هذه العلوم الإسلامية بالعلوم الحديثة وبخاصة أن بعض أجزاء من الوطن العربي لها تاريخ عريق في الزراعة مثل العراق والشام واليمن ومصر ووصلت إلى مرحلة استخراج أنواع متباينة من الفواكه والأشجار فقد مر علينا أن أنواع التفاح زادت وكثرت أشكالها وطعمها وألوانها وقد حاولت أن أحصي في العراق أنواع التفاح فلم أجدها تزيد على عدد أصابع اليد فأين ذهبت جهود الفلاح وتجاربه . . . ؟ وما معنى استنبات هذه الأنواع الفريدة سواء كانت من التفاح أم العنب . أليست معناها وجود تجارب علمية دقيقة . وإن هناك تطوراً حضارياً ورهافة في الذوق ورفاهية في العيش ولعل من الكتب التي أتمنى أن تحقق (كتاب الفلاحة النبطية) الذي قال عنه الزميل الدكتور (صالح أحمد العلي) . . . انه كتاب ضخيم لا يزال مخطوطاً وفيه معلومات عن المحاصيل الزراعية الرئيسة في العراق وأنواع بعضها ولكنه لم يستوعب كافة المحاصيل . . . وقد ذكر ابن البيطار في كتابه الجامع لمفردات الأدوية والأغذية المحاصيل منقولة عن كتب النباتات التي سبقته والتي أُلِفَتْ قبله في الطب التي عثر عليها كما ذكر محمود الدهياطي في (معجم أسماء النباتات) جميع المحاصيل التي ذكرها ابن البيطار وذكر اسمها العلمي أمام الاسم العربي .

وكان الطبيب العربي يذكر أماكن العقاقير ويقوم بإحصاء عام لها لكي يستفيد منها عند الحاجة فهو يعرف مكان تكاثرها وزرعها فقد حدث يونس

الصيدلاني عن ابن الفقيه الهمداني بأنه أحصى ما عمل من العقاقير النباتية على سواقي الأنهار وأدخلها في الأدوية التي يمكن الاستفادة منها في العلاج الطبي .

وقد ذكر ابن الفقيه بأن العقاقير والأدوية كانت سببا في تخليص المرضى من العذاب الذي كان يعاني منه المريض من آثار الأمراض وأوجاعها والاسقام وآلامها (التي تسببها هذه الأمراض . وأثر كل نبات في إزالة المرض والكميات التي يعالج فيها وهو خير دليل على أن العرب كانوا اصحاب تجربة علمية وقد قال قدري طوقان . . . ان خير ما أهدها العرب هو الاهتمام بالتجربة والحث على اجرائها مع دقة الملاحظة وقد طالب جابر بن حيان من الذين يعنون بالعلوم الطبيعية الا يحاولوا عمل كل شيء مستحيل أو عديم النفع وعليهم أن يعرفوا السبب في اجراء كل عملية . . .) .

ولا شك بأن الغرب وأمريكا قد وصلا الى مرحلة متطورة في الزراعة وقد اخضعت الى تجارب علمية متقدمة . بفضل الآلات الجديدة وأسلوب استعمال هذه الآلات في الري والزراعة والحراثة والحصاد واستنبات أنواع جديدة وأشكال غريبة لم تكن معروفة وقد أدخلت التقنية الحديثة عليها في تطوير أنواع البذور واحداث طفرات للحصول على نباتات جديدة تلائم البيئة الغربية وحاجات الفرد اليومية في الحجم واللون والطعم وتقاوم الأمراض والآفات الزراعية وحفظ النباتات بعيداً عن الاصابة بالامراض وباطالة زمن تخزين البذور وانتخاب الانواع الجيدة منها .

وان العلم الحديث بدأ في استعمال الاشعة في تطوير أنواع النباتات والاشجار والخضروات لتلائم حاجة المستهلك وتغريه بلونها وحجمها أو شكلها الخارجي وطعمها الداخلي . والقضاء على الخلايا التي تؤدي الى النمو غير المرغوب . كما تطورت أساليب القضاء على الحشرات الضارة والآفات الزراعية التي تفسد المحاصيل أو تعيش عليها بأساليب جديدة وبطرق حديثة .

الذي أرجوه أن يكون المهندس الزراعي الذي تعلم علوم الغرب واستفاد من علمه أن يستفيد من تجارب اجسادده وبراعة المسلمين الزراع الأوائل فان هذه التجارب نابعة من حاجات البيئة ودراسة المناخ والارض والتربة جيلا بعد جيل وله ان يحكم بعدها بمقدار تطور هذه العلوم عند الغرب في سبيل تطوير الزراعة وعلم الحيوان في الوطن العربي لان حاجات الغرب الزراعية وتجاربهم تتحكم فيها طبيعة الغرب من هواء وأمطار وقلة ظهور الشمس فقد استفادوا بالتجربة من آثار الطبيعة وعرفوا كل شيء عن المناخ والرياح والأمطار والاسمدة والري عندما بدأوا في الزراعة . فلماذا لا نطبق نحن تجاربنا على الزراعة ؟ وأخيراً مما يثلج الصدر ويفرح النفس أن المملكة العربية السعودية قد نجحت في كثير من زراعة المحاصيل الزراعية والخضروات وبخاصة الحنطة وقد بشرنا بأن المستقبل سيكون في عون الفلاح في الاعتماد على المزروعات الداخلية والاستغناء عن الاستيراد من الخارج وتلك نظرة سليمة عميقة الجذور لأن الأمة التي تستورد ما تأكل لن يكون لها مستقبل بين الأمم المتقدمة . . .

وأسأل الله أن يأخذ بيد العاملين جميعهم . .

والسلام عليكم ورحمة الله

مصادر متنوعة للاستفادة منها

في البحث غير ما ذكر

- ١- علم الفلاحة عند المؤلفين العرب .
خوس مارية مياس بيكروبا تعريب عبداللطيف الخطيب ، تطوان ١٩٥٧ .
- ٢- عبقرية العرب في العلوم والفلسفة .
عمر فروخ - بيروت ١٩٦٩ .
- ٣- العلوم العملية في العصور الاسلامية - عمر رضا كحالة ، دمشق ١٩٧٢ .
- ٤- العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي .
الدوميلي ترجمة عبدالحليم النجار ومحمد يوسف موسى
القاهرة ١٩٦٢ .
- ٥- ابن البصال رائد الفن الزراعي الحديث في الاندلس .
جعفر خياط مجلة المجمع العلمي العراقي ج ١٥ - ١٩٦٧ .
- ٦- كتاب الفلاحة لابن بصال .
جواد علي مجلة المجمع العلمي العراقي ج ٦ - ١٩٥٨ .
- ٧- علماء العرب الاندلسيون .
محمد عبدالله عنان مجلة العربي العدد ٤ سنة ١٩٧٠ الكويت .
- ٨- تأثير العرب والعربية في الفلاحة الاوربية .
مصطفى الشهابي - مجلة المجمع اللغة العربية - دمشق ج ٢٦
سنة ١٩٦١ .

٩- كتب النبات حسين نصار .

مجلة المجمع العلمي العربي ، دمشق .

١٠- مجلة المورد العدد الرابع مجلد ٦ سنة ١٩٧٧ (عدد خاص عن العلوم

عند العرب) فيه عدة مقالات منها :

١- عجائب المخلوقات عزيز علي العزي .

٢- علم الزراعة والنبات من خلال كتاب الفلاحة لابن البصال .

عادل محمد علي

٣- الهندسة الزراعية عند العرب .

سند السيد باقر الفحام



مركز تحقيقات كميّات علوم إسلامي

